الأنساق الثقافية في خطبة الحجاج

إعداد

مؤيد أحمد سعيد خلف

المستخلص:

هدفت هذه الدراسة إلى تحليل خطاب الحجاج المشهور، حينما تولى العراق، وفق منهج النقد الثقافي، وقد تبين أن هذا الخطاب وليد أنساق ثقافية قبائلية، تتجلى في رفض الآخر، وتعاظم الأنا، وذكوريّة طاغية، وهجائيّة مُلْغية ومسترخصة للدماء، تتحكم في إنتاج هذا الخطاب، وتترابط لتتكامل في نسقية سلطوية عصبية طاغية، وذكورية فحولية، يستسلم لها الجمهور مسحورين بأنساقها التي آلفت مُضمراتهم التحتية، ويستجيبون خوفًا أو طمعًا، وقد حقق الخطاب غاياته حينذاك، واستقام لـ(أنا) الحجاج بعده أمر العراق.

الكلمات المفتاحية: نسق سلطوي، عصبية، ذكورية، فحولية، مضمر، النقد الثقافي.

المقدمة

هذا بحث في الأنساق الثقافية في خطبة الحجاج الشهيرة، حينما تولى العراق، وقَدِمَ إلى الكوفة، و هي دراسة تسعى إلى الكشف عن الأنساق المضمرة التي تخاطب اللاوعي في الفرد والمجموع، فتردهم إلى أنماط من السلوك في القول والفعل حُبًّا أو كرهًا، وينقاد لها العقل في سكرة عن التدبّر خوفًا أو أمنًا.

- فما هي الأنساق التي استبطنتها خطبة الحجاج؟
- وكيف تجلى النسق القبلي؟
- وكيف تبدّى النسق السلطوي وامّحى الآخر؟
- وأين ظهر النسق الجنوسي؟

لعل هذه الدراسة –رغم تواضعها، وصغر حجمها–تمدنا بالإجابات عن هذه التساؤلات، هذا وسيتبين من خلال هذا البحث مدى تحكم الأنساق الجاهلية في النفسية الجمعية، وتلبسها أردية الدين، وسريانها في المجتمع حينذاك.

قُسم البحث إلى ثلاثة أجزاء :

- تناول الجزء الأول النسق القبلي، ومدى استحكامه في البيئة العربية، ومدى فاعليته في اللاوعي.
- وتناول الجزء الثاني النسق السلطوي المستبد، والمستكن في الأنا الطاغية.

- وتناول الجزء الثالث النسق الجنوسي؛ في هشاشة المرأة، وامتهانها في ظل هيمنة الذكورية على المجتمع العربي.

حيث اتبعت في دراستي هذه منهج النقد الثقافي؛ لتوافقه وموضوع الدراسة، وتأتي أهميتها في أنها تناولت نصًّا خطابيًّا مشهورًا، وفق منهج جديد في الدراسات الأدبية.

أولا: النسق القبلي

عندما يشتهر نص فإنه يحوز على الإعجاب بما يوافق مضمرات النفوس، وقناعاتها العميقة، وظلالها السحيقة، والنصوص تعكس رغبات قائليها، ومتلقيها المعجبين؛ وذلك لا يكون بوعي متعمد، وإنما يأتي بانسجامٍ وتناغمٍ ودفءٍ مع الأفكار الدفينة، والأحاسيس المرهفة في أعماق نفوس المتلقين.

وتزداد النصوص اقترابًا من الأفكار الدفينة والمشاعر العفوية كلما كانت ارتجالًا غير مصنوع برقيب العقل أو الأعراف، وليس أدق من تمثل اللاشعور النفسي الفردي والجمعي من الخطابة الارتجالية، التي تبعث حيثياتها ممعنة في ملامح الجمهور، فتمتزج بدفقات اللاوعي الذي يحمل الأعماق التكوينية، والخلفيات اللاشعورية، والأبعاد الأسطورية، فتنثر بيانًا سائغًا للمستمعين.

وخطبة الحجاج تأتي في هذا السياق؛ لتتجلّى من خلالها أنساق عديدة، لا تقولها الأنا عن ذاتها إلا متلبسة بالعقائد المألوفة أو البديهيات المعتنَقة.

قد تعمقت الأواصر القبلية في ظل التهديد المعاشي، وشكلت حامية لأفرادها، ولمواردها المعيشية في أماكن سيطرتها، وكانت القبيلة حصنًا منيعًا في وجه الطامعين بمصادرها الحياتية، في بيئة قاسية مخيفة لا ترحم، وسارت القبيلة إلى "نظام ثقافي طبعيّ" (الغذامي، 2009م، ص100)، تعادل فيه القبيلة الدولة، ويعادل النسب فيها المواطنة والجنسية، فلا تجرؤ عشيرة أو قبيلة على أخرى، خاصة إذا كانت أقوى منها؛ لأنها ستنال من العقوبات ما لا يوقفه قانون أو عدل أو رحمة، وإذا كان التجمع البشري في شعوبٍ وقبائلَ سُنّة اجتماعية طبيعية، فمن غير الإنساني ولا الطبيعي ولا العقلاني أن تعتنق هذه التجمعات عقيدة الظلم والعدوان الوحشي، وتتأصل في مكونها الوجداني البدائي دون مقاومة من عقل أو رشد، حتى غدت "طبيعة فطرية لم تتغيّر كثيرا منذ زمن البدايات الأولى" (الغذامي، 2009م، ص31)؛ إذ من صفات القبيلة الفاضلة على حدّ معتقدهم أن "تصير إلى الشر حالا من غير سؤال أو تردد، وهي التي تنصر أبناءها سواء أكانوا ظالمين أم مظلومين، وهي التي تجزي الظلم بالظلم والإساءة، وليس للحلم أو العفو عندها نصيب، وهي التي

لا تخشى الله عندما تظلم أو تنتقم، بل تذهب في أقصى ذلك أقصى حدّ ممكن" (الوردي، 1994م، ص100).

وفي ظل هذه البديهيات القبلية يصبح النسق مكونًا أساسيًّا، "ينتج عن إحساس بالخوف يدفع للتحيّز" (الغذامي، 2009م، ص9)، ويتكشف عن معنى استعلائي وإقصائي، يكون الظلم فيه أساسًا للنظام المعيشي (الغذامي، 2009م، ص100)، وهو ما ظل سائرًا في التاريخ القبلي، وما زال يروي سجلًا حافلًا من العنف والاضطهاد والاستعباد الاقتصادي واللامعقول الاجتماعي (الغذامي، 2009م، ص31)، وما زال يتحكم في اللاشعور القبلي على الرغم من توفر المدارس، والثقافات المختلفة، والتعاليم الدينية والأخلاقية، والأنظمة الاقتصادية الحديثة (الغذامي، 2009م، ص31.

وقف الحجاج على المنبر وسط الجميع متفرسًا؛ ليعلن أول ما يعلن نسبه، وهو "ينظر يمنة ويسرة، حتى إذا غصّ المسجد بالناس، قال: يا أهل العراق، إني لأعرف قدر اجتماعكم، وهل اجتمعتم؟ فقال رجل: قد اجتمعنا أصلحك الله، فسكت هنيهة لا يتكلم، فقال الناس: ما يمنعه من الكلام إلا العي والحصر، فقام الحجاج فحسر لثامه، وقال: يا أهل العراق، أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود" (ابن الجوزي، د.ت، ج2، ص151).

البدء بـ(أنا) ثم قوله الاسم إلى أن يصل ابن مسعود يعطي أهمية للنسب أكثر من الاسم الشخصي في بيئة قبلية، تقيم وزنًا للقبيلة أكثر بكثير من الاسم الشخصي.

في أول الأمر استخف به الجمع قبل أن يسمعوه، فانطلق يعرّف نفسه، ولم يقف في نسبه إلا عند من هو في السؤدد والأصل من ثقيف ابن مسعود، الذي يمتد بصلة القربى إلى عروة بن مسعود الصحابي الشهيد (زيادة، 1995م، ص25)، والذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: هذا مثله كمثل صاحب يس (ابن كثير، 2010م، ج 4، ص888)، والذي كانت ترى فيه العرب أحد الرجلين العظيمين (ابن كثير، 2010م، ج 4، ص184) في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف، الآية 31)، كما كان والد الحجاج من سادة ثقيف وأشرافهم، ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش معروفة (زيادة، 1995م، ص11)، وكان من كبار الملاك في مكة، وقد تزوج بالفارعة سيدة نساء ثقيف، وأكثرهن حليًّا (زيادة، 1995م، ص13)، وطالما فخر الحجاج بأنه "ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش" (ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص280.

فعندما يقدم الحجاج نفسه ممتدًا في نسبه إلى من يعرفه العرب إنما هو يستجيب لنسق قبلي مضمر في نفسه وفي نفوس الحضور، حيث الارتباط بالأنا العليا للأسلاف (برجر، 2003م، ص161)، وهو بذلك يثبت أنه ابن أصول، وأن قيمة القبيلة تنغرس في جذور تفكيره، وجذور تفكير الحضور، مما يعطي مفعولًا قويًّا في الخطاب (الغذامي، 2005م، ص138)، وأهمية كبيرة للخطيب فيهم، وهذا النسق القبلي المتأصل في وجدان العربيّ ما زال فاعلًا حتى اليوم، ولا يخفى أن دولا عربية تقوم على التقسيم القبلي، علاوة على كل قرية ومدينة، وما زالت العادة سارية في تقديم الشخص نفسه منتهيًا إلى اسم العائلة، مريحا بذلك نفوس الحضور في سكون نسقهم المضمر إلى الأصول.

ليس في النسب وحده تجلّى النسق القبلي في خطاب الحجاج، ولكن في النص كله، فهو عندما يستخدم التهديد والوعيد، والشتم والتقريع، يصدر عن نسق قبلي، يجعل الظلم قيمة أصيلة تعكس قيم الظلم القبلي؛ "يا أهل العراق إني لأرى رؤوسًا قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى... يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق... وأيم الله لألحُوَنكم لحوَ العود، ولأعصبنكم عَصْب السَّلمة، ولأضربنكم ضرب غريبة الإبل" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص152). فإن بدأ بالنسب فقد نمّاه إلى سلطة شيخ القبيلة الذي ينفي الآخر، ويصعلكه، فيجعله كغريبة الإبل.

إن العبارات التي تطفح كرهًا وثأرًا واسترخاصًا للدماء على طول الخطاب تصدر عن تماهٍ مع النفس العربية القبلية، التي لا تقبل الآخر مستقلًا أو ندًّا إلا إذا غالبها وقهرها، ولا تقبل الآخر عن قوة لأنها تراه مُهدِّدًا لمصادر حياتها، فإن قبلته جاء ذلك عن ضعف وفقْد الحيلة، مع التربص وتوفّر الغدر.

إن هذه الذات المتلبسة بأردية (النحن) والمتعاظمة، لا يمكن أن يبقى فيها مكان للآخر (الغذامي، 2005م، ص127)؛ لذلك كان الخطاب مراغِمًا ومخضِعًا، ليس فيه إلا الانقياد أو الموت.

ويلتقي في خطاب الحجاج القيمة القبلية مع القيمة البلاغية؛ فيجتمع سحران يُذيبان الآخر، ويلغيان وجوده، وتصير القيمة البلاغية مع القيمة القبلية فوق كل قيمة عقلية منطقية، لا تقدم سوى التعاظم الملغي للآخر، وينطلق لسان الشعر بالقبلية المتوحدة مع الأنا "أنا ابن جلا وطلاع الثنايا" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص151)، وبينما كان قد "تناول محمد بن عمير حصباء، وأراد أن يحصبه بها، قال: قاتله الله ما أغباه وأذمه... فلما تكلم الحجاج، جعلت الحصباء تنتثر من يده، وهو لا يعقل به" (ابن الأثير، 2004م، ج4، ص143)، إنها البلاغة القبلية التي تسحر النفوس فما تعقل عن حركاتها.

ويتكاثر القسَم في الخطاب حاملًا الوعيد والترهيب، وخاتمًا بالفعل الأكيد، صادرًا عن عصبية حازمة، تغترف من ثقافة القتل والثأر في نسقية قبلية، "إني والله لا أحلف إلا بررت، ولا أعد إلا وفيت، وإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك" (ابن الأثير، 2004م، ج6، ص152)، فأتاه عمير بن صابئ فقال: أيها الأمير إني شيخ كبير عليل، وهذا ابني أقوى على الغزو مني، قال: أجيزوا ابنه عنه، فإن الحدث أحب إلينا من الشيخ، فلما ولى الرجل، قال له عنبسة بن سعيد: أيها الأمير هذا الذي ركض عثمان برجله، وهو مقتول، فقال: ردوا الشيخ، فردوه، فقال: اضربوا عنقه" (ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص279.

أجاز الرخصة للشيخ المريض لعدم فائدته في الغزو، واكتفى بابنه الشاب، ثم ما لبث أن بطش به لقول قائل؛ ليثبت سطوة العصبية في تفاهة الآخر، واسترخاص دمه، وهو ما يُعجب حمية العربي القبلي؛ لأن هذا الحزم من أصول القيم القبلية التي تنبع من ضرورة وجودية في النهوض للغزو من أجل البقاء والسلامة، والتي لا تعرف الرحمة والعفو (الغذامي، 2005م، ص104).

وقد استنهضهم لغزو الخوارج طمعًا في العطاء، وأرعبهم من التخلف، فقال: "لئن تخلف رجل منكم بعد قبض عطائه لأضربن عنقه، ولأنتهبن ماله" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص153)، مشهد لا يختلف عن مشهد قبيلة تتهيأ للغزو، فيها الطمع بالغنائم، وفيها القتل والنهب، والأمر لشيخ القبيلة المتعالي والمتعاظم، "وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله، لا أجد رجلًا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وانتهبت ماله، وهدمت منزله" (صفوت، د.ت، ج2، ص277). وفي (محاربة عدوكم) قيمة قبلية واضحة، فما دام الخوارج عدوًّا لكم فينبغي الانطواء تحت الأنا لنحمي القبيلة وأهلها، ونغزو الآخر فنقتله وننهبه ونغنمه، ولم يكن أي اعتبار لرابطة الأخوة الإيمانية لا من هذا الطرف ولا من ذاك، في تجل واضح لأنساق قبلية متحولة لا يعصم الدم إلا بها، والتقاعس عن هذا الفعل خرق للنظام القبلي هذا، وتهديد له، يستوجب العقوبة المماثلة للعدو، وما دام الآخر عدوًّا عربيًّا فهو يفكر في لا شعوره كما يفكرون في لا شعورهم، وفي أناهم المتعاظمة والمستعلية التي لا تأمن الآخر، مالم تُخضعه وتستعبده، إنه فكر مفعم بثقافة القبيلة، فإن سكتم عنه ونكصتم، فسيغزوكم ويستعبدكم ويغنمكم، ومن هنا كان النكوص خيانة كبرى للقبيلة، تستوجب أشد العقوبات الرادعة .

لم تكن مقولة الحسب والنسب إلا عبارة من العبارات الرمزية، التي تحمل في طياتها شحنة ثقافية قبلية عالية الكثافة، تحمل المفاخرة بالآباء والأجداد، وتنفي البعض الآخر لتتظاهر بالمجد والمنافسة والسلطة (الغذامي، 2009م، ص16)، وعندما يجتهد الإنسان ليثبت اختلافه عن أخيه الإنسان بقبيلة أو عرق فهو ينساق وراء بناء الأنا بإلغاء الآخر، وعندما كان الآخر في نظر الحجاج أهل العراق أهل الشقاق والنفاق، أدّبهم بالوعيد والتهديد، وبالترغيب والعطايا، كما تؤدب القبيلة أبناءها، فلمّا استقاموا تحت الأنا المتحولة عن (النحن) صار الآخر بالنسبة لهم الخارجي، الذي ينبغي أن يُعدّوا العدّة لغزوه قبل أن يغزوهم.

في هذا الخطاب لا نجد إلا روح الجاهلية القبلية تسيطر على النفوس، وتتسلل إلى مجتمعات المسلمين في أردية التحول، خاصة ونحن نرى الحجاج وأهل العراق والخوارج بجنودهم كلهم مسلمين، لم ينفكّوا عن تصارع القبائل، والغزو والقتل والنهب، في تحولات العصبية القبلية الحزبية والمذهبية، مع أن الإسلام نبذ هذه الحميات العصبية، وأقام ميزان التقوى في الفضل والكرامة عند الله، وجعل الاختلاف تعاونًا وتأليفًا، إلا أن النسق القبلي الجاهلي في التنافي والتلاقي كان أقوى وأظهر.

ثانيا: النسق السلطويّ

" بدأ الحجاج بالمسجد، فصعد المنبر، وهو متلثم بعمامة خزّ حمراء" (ابن الأثير، 2004م، ج4، ص143)، استخدم الحجاج علامات ليمرر معاني الأنا المتعاظمة والمرعبة للآخر، منها اللثام الأحمر، فاللثام يخفي المجهول الذي يُنبِئ بفعل ما يشاء دون رقيب أو حسيب، هذا المجهول الذي يثير الرعب والفزع، الذي ينبغي أن يُتقى شره، والذي يبدو بلون أحمر يوحي بالدماء، وقد أختص النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم– كتيبته من الأنصار والمهاجرين يوم فتح مكة باللثام، فكان لا يبين منهم إلا الحدق، مما أوحى بالقوة الكبيرة، وأثار الفزع، فهذا أبو سفيان يقول للعباس بعدما شاهدها: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا (ابن هشام، د.ت، ج4، ص404>)

فإذا ما انكشف لثام الحجاج أسفر عن لسان بليغ مرعب، وتهديد بالويل والثبور، فإما الخضوع وإما سفك الدماء، وحسرَ اللثام فنطق اللسان برعب البيان، ونهض قائلًا:

أنا ابن جلا وطلاعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

(ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص278).

قد بدأ بالشعر الذي له دلالته وحضوره القوي في البيئات القبلية، ليست بداية استلطاف أو غزل، وإنما بداية مشبعة بالفحولة والعظمة، ومتوعدة بالرعب والفزع، فأنا ابن جلا، ليست أنا الحجاج فحسب، ولكنها (الأنا) الفحولية النسقية المتحولة عن (النحن) القبلية والمشتركة مع (أنا) أمير المؤمنين، خليفة الله على الأرض، منعكسة عن (الأنا) العليا العظمى، فإذا لزم الأمر وضع عمامة السلم والوقار فارعًا إلى الشجاعة، وخوض الغمار، ومستعدًا للقتال.

لم يكتفِ الحجاج في أناه المتعاظمة وفحولته المتوعدة الآخرين بعلامة اللثام، فأضاف إليها السنان، وقد صعد المنبر متلثمًا متنكبًا قوسه (ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص278) و(ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص151)، ثم أعقب اللثام والسنان باللسان القارص الحاد، المتوعد بالدماء والصغار، فقال: "وإني لأرى رؤوسًا قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى،

هذا أوانُ الحرب(الشدِّ) فاشتدي زِيَمْ قد لفها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمْ"

((ابن الجوزي، د.ت، ج6ص152).

فبعد اللثام الذي يوحي بالأنا المطلقة العظيمة، والقوس الذي يحمل دلالة نسقية فحولية ترتبط بالأنا ارتباطًا عضويًّا، يأتي اللسان بقوته السحرية، يردف بالشعر، وما للشعر من ولايته على النفوس مُحمّلًا بالتهديد والوعيد، في تجسيدٍ ثلاثيّ الأبعاد للسلطة التي لا تعرف الرحمة، فيجعل الجمع ينهزمون بسحره المرعب، ويستسلمون تحت أناه السلطوي، استجابة للخوف والطمع إذا لم تكن اقتناعًا عن دواعي الفكر والعقل.

قد مثل خطاب الحجاج نمطية الشخصيةِ العربية القبلية، شخصيةِ الفردِ المتوحدِ، فحلِ الفحولِ ذي الأنا المتضخمة النافية للآخر (الغذامي، 2005م ص94)، والنموذج الثقافي السلطوي الطاغي الذي يُخضع الجماهير مهما كانت متباينة ومتمردة؛ لأنه يحاكي الأنا العليا، ويجسّد الحق المطلق الذي ينبغي أن يصير إليه الآخرون أو يقتلون، فهذه الأنا المتعاظمة والمتحدة مع أنا أمير المؤمنين، "لقد فُرزتُ عن ذكاء، وفُتشتُ عن تجربة، وأجريت من الغاية، وإن أمير المؤمنين نثر كنانته، فعجم عيدانها عودًا عودًا، فوجدني أمرّها عودًا، وأشدها مكسرًا، فوجهني إليكم، فرماكم بي" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص152)، إن الحجاج يرى ذاته الأمرّ والأشدّ، وفي مرّها وشدتها تتفوق على الآخرين، بل وتعظم على الجمهور أهل العراق لدرجة أن أمير المؤمنين لم يرمهم بها، بله رماهم به، وسيغالبهم فيكسرهم، ويجعل عيشهم مرًّا، إذا لم يخضعوا لأمره، ولم

يستسلموا لسلطته الصادرة عن سلطة أمير المؤمنين خليفة الأنا العليا، وهذا النسق لا تنفك عنه أيّ نفس أطلقت لذاتها العظمة، وصادفت سيادة في الواقع إذا لم تلجم نوازعها، وتحدّ من غرورها، ففي داخل الذات المتعاظمة في كل كائن بشريّ حلمٌ يراودها أن تكون إلهًا، لو أمكنها ذلك (الغذامي، 2009م، ص17).

ويستشهد الحجاج بآية من كتاب الله يُشرْعِن فعله وفعل الخليفة فيهم، ويصل أناه المتحدة بالأنا العليا، "فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون... أما والله لتستقيمُنّ على طريق الحق أو لأدعنّ لكل رجل منكم شغلًا في جسده" (صفوت، د.ت، ج2، ص 276–277).

في هذا الخطاب نسق سلطوي يأخذ شرعيته من الله سبحانه؛ ليمارس سلوكيات الطغيان والتجبر، وهو على حق لأنه تشرعن باسم الدين، كذلك شيخ القبيلة لا يُعصى، وسلطته نافذة، وشرعيته مستمدة من القبيلة، وحمايتها من الهلاك يجعله على حق دائمًا، حتى لو كان ظالما سفّاحًا بحق غيره، كذلك أمير المؤمنين، يتحول في سلطته لشيخ قبيلة، يطاع في قراراته، حتى لو لم تكن عادلة، وهو على الحق دائمًا، والخارج عن طاعته مستحق النفي والقتل، وأما إن انساق تحت هذه الأنا المعظمة، ذات الجلال فينعم بالأمن، ويطيع في الغزو، ويغنم مع الغانمين، وبذلك تحمي القبيلة أفرادها، وتوفر أسباب العيش في قسوة البيئة، وتربص الأعداء، كذلك أمير المؤمنين يأمر بالأعطيات، ويدعو للغزو، "وإنّ أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم" (صفوت، د.ت، ج2، ص277)، مبررًا أمره بأنه "لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جيء فيء، ولا قوتل عدو، ولعطّلت الثغور، ولولا أنهم يغزون كرهًا ما غزوا طوعًا" (ابن الأثير، 2004م، ج4، ص144)، فهذه المبررات للغزو هي نفسها في نظام القبيلة؛ الغنائم وحماية حدود القبيلة وربوعها من الطامعين.

ومع أن الإسلام أقام رابطة الأخوة الإيمانية بديلا عن رابطة الدم والقبيلة، وحرم قتل النفس عامة بغير نفس، وعظم قتل المؤمن، وتوعد بأشد العذاب، فقال سبحانه: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة، الآية32)، ﴿وَمَنْ يَّقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، الآية93)، ومع شدة هذا الوضوح في النص القرآني المنافي لقيم القبيلة ونظامها، إلا أن النسق القبلي القائم على القتل والغزو طغى على البيئة العربية، مرتديًا أردية الدين، وظل يحرك السلوك بلا وعي أو شعور، وظلت قدرة النسق على التحايل على العقول

ليفرض قدرته التأويلية على النصوص، ويجعلها تتكلم بمراده (الغذامي، 2009م، ص102)، فتتحول الأخوة الإيمانية إلى عصبية قبلية، متحولة إلى مذهب أو حزب، ويتحول الغزو والقتل والنهب الذي كان يستهدف القبائل الأخرى إلى أصحاب المذاهب أو الحزب، وهكذا جرت تحولات النسق السلطوي في خطاب الحجاج.

ثالثا: النسق الجنوسي

الثقافة العربية القبلية تهمش المرأة، وتلقي بها في الظل، وتعتبر شؤون المجتمع شأنًا ذكوريًّا، وخطاب الحجاج يتساوق مع ذلك، فلا نجد ذكرًا للمرأة عمومًا، وكأن شؤون السياسة والحرب وولاية الأمر حكر على الرجال، وأن المجتمع في وجوده ذكوريّ فقط، وإذا أتى ذكر المرأة فلا يأتي إلا مُعابًا مُنتقصًا، وقدرها أن تُمَتِّع الرجل مع الدناءة والضعف، ويسكن إليها مع الخزي والعار، وهي بموت الفحل أرملة ضعيفة، يُتوقع انفلات شرفها؛ لأنها مجرد جسد شبق (الغذامي، 2006م، ص29–32).

وهي إن ساست ورعت أساءت، وما أدبت، وفي هذه التناقضات الذكورية تسكن إلى الأنثى وتستعديها، وتجتمع إليها وتقصيها، وتعاشرها وتلغيها، وتعيش الأنثى في المجتمع الذكوري هذا مبخوسة الحقوق، ومستلبة الشخصية، حتى إنها رغم حملها الأجنة تسعة شهور، ورعاية أطفالها سنين طويلة تُسلب حق النسب، بله النسب إليها معيب؛ فلا يكون النسب إلا من جهة الأب، متجاهلين الرحم الذي يلد الحياة، ويستودع الجنين، والحضن الذي يغذي الوليد، حتى يحيا ويقوى في كنف الأمومة الرؤوم، فالأنا الذكورية العربية تنسب الأولاد إليها، وترتبط بأسمائهم ليمدّوها بأواصر الخلود (الغذامي، 2006م، ص29)، ويرون أن الأولاد إن تركوا لتربية المرأة ساءت آدابهم، وفي ذلك يقول المعري:

إذا بلغ الوليد لديك عشرًا فلا يدخل على الحُرَم الوليدُ
فإن خالفتني وأضعت نصحي فأنت وإن رُزقت حجىً بليدُ
ألا إن النساء حبالُ غيٍّ بهنّ يُضيّعُ الشرف التليدُ

(المعري، د.ت، ج1، ص279.)

ومع أن الموقف موقف صراع وخصام وحرب لا تبين فيه الأنثى، كما قال تعالى على ألسنة العرب وقتذاك: ﴿أَوَمَن يُنشأ فِي الْحِلْيَةِ وَهوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (سورة الزخرف، الآية18)، إلا أنها ظهرت في فلتة لسان الحجاج، وهو يعيب على الجمع من الرجال حينما قال: "يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ عليهم، بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم،

فلم يقل أحد شيئًا، فقال الحجاج: اسكت يا غلام، هذا أدب ابن نِهْيَة، والله لأدبهم غير هذا الأدب، أو ليستقيمُنّ، اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: سلام عليكم، لم يبقَ أحد في المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام" (ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص279)، وفي روايات أخريات، هذا أدب ابن نهبة، وابن سمية، وابن أذينة، وابن أبيه (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص75).

إن الحجاج إذ يقترب في خطابه من المرأة كان مشحونًا بالتحميلات النسقية الجنوسية، فسوء الأدب من تربية المرأة، وسيئ الأدب ابن الأنثى في تصوراتها المنتقصة... نِهية أو سمية أو أذينة... وهو تنسيب يقدح بالمرأة، وكنية تذمها، وقد اكتسب الابن من أمه سوء الأدب والتربية.

وليس ببعيد عن الحجاج إسقاط نسب الابن عن الأم، ومناظرته مع يحيى بن يعمر مشهورة في ذلك (ابن خلكان، د.ت، ج6، ص174)، وقد احتج بقول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهُنّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

(الهلالي، 2006م، ج1، ص303) و(ابن قيم الجوزية، 1997م، ص386–387).

فإذا كنّى الحجاج بأمه إنما قصد ذلك لسوء أدبه، محملًا المرأة وزر ذلك، بينما جرت العادة الذكورية العربية أن "الولد يتبع أباه في الدين والنسب" (الحداد، د.ت، ص30)، وفي رواية أخرى، قال الحجاج: "هذا أدب ابن أبيه" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص154)، وهذا تعريض واضح يشف عن جهل الأب؛ بما يوحي بأنه ابن زنى، وأن أمه فاجرة أو أمَة، وفي هذه الرواية "ابن أبيه" والأخرى "ابن سمية" يلتقي هذا التنسيب الذي عُرف وشاع عن زياد ابن أبيه، أو ابن سمية، مجهول الأب، وقد كانت أمه بغيًّا يأتيها الرجال (الذهبي، 2004م، ج1، ص1732)، فالذي لا يتأدب بالطاعة لأمير المؤمنين فهو من جرثومة الشيطان، ومما يشين المرأة بالعار، ويظل الهجاء سيد الخطاب لدى الحجاج، لا يسلم منه الرجال كما النساء، وهذا الفعل الهجائي لم يتوارَ عن النسق الثقافي العربي، بل تحوّل إلى نسق مضمر ينطوي عليه كل خطاب، فهو إنما يكرس الأنا المتعاظمة في موقفها الناسخ للآخر، ويصير الهجاء علامة ثقافية لازمة، تظهر آثارها في السلوكيات، والتعاملات الاجتماعية، وحتى الفكرية (الغذامي، 2005م، ص165)، ويصبح الآخر مستحقًا لأشد أنواع الذم، وتتعاظم الأنا في عدوانية ضد الخصم، تقوم على رغبة التدمير (الغذامي، 2005م، ص167)، وإذ لم يكتفِ الحجاج بالوعيد والتذميم للرجال حتى وجدناه يهجم على النساء المعزولات عن هذا المضمار أصلًا، فيُلحِقهنّ بالعار، ويلمزهنّ بالشنار.

وعندما يتوعد الحجاج الرجال المخالفين بالقتل فإنه يقول: "والله لتستقيمنّ على الحق، أو لأضربنكم بالسيف ضربًا يدع النساء أيامى، والولدان يتامى" (ابن الأثير، 2004م، ج4، ص144)، وهو يقرن بين الولدان والنساء دون فحولة الرجال في الضعف والطيش، ويفزعهم من ترك زوجاتهم أيامى؛ لما في مضمر ثقافتهم من أن المرأة من غير فحلٍ "خؤون، تخون سيدها وتهتك عرضه" (الغذامي، 2006م، ص61)، سواء أكان للحاجة والضعف الذي يخضعها لتأكل بعرضها، أم للشبق والتّشهي الذي يدفعها لانتهاك شرفها.

إن المرأة قد استحضرت في خطاب الحجاج على نزرة، فقد حضرت ناقصة مُشانة وضعيفة بلا أخلاق، لا يليق بها إلا هجر مجامع الفحول، أو تهمة الفجور، وإذا فقدت فحلها صارت أرملة هشّة، لا تجد ارتواء لشهوتها فتعاني الأمرَّين، وتكون عندئذ مهددة في حياتها، ومهددة في عفتها، وهو بذلك يكشف عن شماتة مضمرة في المرأة، وعيب لا يصان بلا رجل، ولا هي تقدر على العيش الكريم إلا بعون الذكر، ولا يستقيم شرفها من الانفعال المتفلت، والهيام المنكبت إلا بالفحل البعل، وقتله عقاب للمرأة ونكاية بها، يُحيلها لضياع في مجتمع ذكوري يضطهد المرأة ويفترسها.

الخلاصة:

قد كشف الخطاب عن أنساق فاعلة في البيئة العربية وقتذاك، تمثلت في النسق السلطوي الذي يستبد بالآخر، ويعاظم الأنا في توحد مع الأنا العليا المقدسة، والمحجوبة في السماء، ويُخضع الجمهور بالجبروت والوعيد، وبالهجاء الشديد، وباستباحة الدماء والأموال في تصورات قبليّة، لم ينفكَّ المستمعون عن مشاهدها من حروب الغزو والنهب وانتهاك الحرمات.

قد بدأ الحجاج خطابه مذ صعد المنبر باللثام متنكبًا قوسه، ثم تجلى باللسان البليغ القارص المميت لكل مخالف، صادرًا عن قوة القبيلة المتحولة في الحزب الأموي الحاكم، مطلق اليد في البطش والتنكيل، كشيخ قبيلة تحدّه قيم الأنا في وجودها ليس غير، فمن خرج عن الخضوع فقد أساء الأدب، كصعلوك القبيلة، الذي لم تؤدبه أمه، متوعده بأدب الويل والثبور.

وإذ يهجو الحجاج الآخر ويمحوه، يمدح ذاته وينتفش بأناه عاكسًا تشكيلًا ساحرًا في أذهان الحضور، يدفعهم للسمع والطاعة فرارًا من لازم التهديد، وانفكاكًا عن مُستقبَح الهجاء، إلى التأدب والانقياد.

ولم ينسَ الحجاج توظيف نصوص الدين، سواء في الهيمنة والاستبداد، أم في الذم والعقاب؛ لتتساوَق مع القيم القبلية الجاهلية، التي تكشف عن قدرة الأنساق المضمرة على استنطاق الآيات المقدسة لما تريد وتهوى،

وقدرتها على التلبس بأردية الدين وغيره، فتُشرْعِن الأنا الطاغية المستبدة، وتلغي الآخر المخالف، وتحلّ دمه وماله، وتُشيطن الأنثى وتُقصيها.

قائمة المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد: الكامل في التاريخ، تحقيق: خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، 2004م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عطا وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفايات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ابن عبد ربه، أحمد بم محمد: العقد الفريد، ط!، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن قيم الجوزية: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، ط1، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية،1997م.
- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ط1، دار الفجر للتراث، القاهرة، مصر 2010م.
- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- برجر، أرثر أيزا: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، ط1، ترجمة: وفاء إبراهيم وزميلها، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003م.
- الحداد، الطاهر: امرأتنا في الشريعة والمجتمع، د.ت.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد: سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004م.
- زيادة، محمود: الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، ط1، دار السلام، مصر، 1995م.
- صفوت، أحمد زكي: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ط1، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر.
- الغذامي، عبد الله: القبيلة والقبائلية أو هوايات ما بعد الحداثة، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2009م.
- الغذامي، عبد الله: المرأة واللغة، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006م.
- الغذامي، عبد الله: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 2005م.
- القرآن الكريم.
- المعري، أبو العلاء: اللزوميات، تحقيق: عمر الطباع، دار الأرقم، بيروت، لبنان.
- الهلالي، محمد تقي الدين: سبيل الرشاد في هدي خير العباد، ط1، الدار الأموية، عمان، الأردن، 2006م.